الفصل الثاني
في معجمية الفهم

أولا
معاجم مصطلح الحديث النبوي الشريف
نشأتها ومناهج تصنيفها

(مدخل)

يُجمع اللغويون على اختلاف توجهاتهم وبيئاتهم وأزمانهم على أن الإسلام انتقل باللسان العربي وبعلومه نقلة جبارة غير مسبوقة، وهو ما يُعرف في الدرس اللغوي باسم الأسباب الإسلامية أو الألفاظ الإسلامية، حتى استقر أن الإسلام هو المسئول الأول عما يسمى في دراسات علم اللغة التاريخي باسم التطور العمدي أو المقصود لدلالات بعض الألفاظ. يقول ابن فارس اللغوي في كتابه الصاحبي [ص ٣٨]: "كانت العرب في جاهليتها على إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم، فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت"، فهذا الذي سمي نقل ألفاظ عن مواضع إلى مواضع هو مقصودنا بأن الإسلام هو المسئول أولا عما جدَّ على المعجم العربي من المصطلحات، ولا سيما مصطلحات العلوم الشرعية، ومنها مصطلحات الحديث النبوي الشريف.

وهو ما تنبه إليه السيوطي في (المزهر في علوم اللغة) [١/٢٩٤، وما بعدها]، وأبو حاتم الرازي في (الزينة في الكلمات الإسلامية) [١/٥٦]، وغيرهما من القدامى، وجرجى زيدان في (اللغة كائن حي) [ص ٣٦]، والدكتور علي عبد الواحد وافي في (فقه اللغة) [ص ١١٩]، والدكتور مازن المبارك في (نحو ويى لغوي) [ص ١٠٨]، والدكتور عبد الصبور شاهين في

(العربية لغة العلوم والتقنية) [ص ٦٤]، والدكتور رمضان عبد التواب في (دراسات وتعليقات في اللغة) [ص ٢٩]، وغيرهم كثير جداً!

(١) نشأة التأليف في مصطلح الحديث النبوي الشريف.

ترجع العناية بمصطلحات الحديث النبوي الشريف إلى مرحلة متقدمة جدًّا من عمر العلم الإسلامي، لدرجة يمكن القول معها إن بدايات العناية بقبول الحديث وردّه، وهو لب علم مصطلح الحديث إلى عهد النبي- صلى الله عليه وسلم- فيما ورد عنه من النهي عن الكذب عليه، ومن التحوط في الرواية عنه.

ثم ظهرت بدايات من هذه العناية في عصر الصحابة في ما تمثل في استدراك بعضهم على بعض، بسبب من تفاوتهم- رضي الله عنهم- في الرواية عن النبي- صلى الله عليه وسلم- وحتى صنف في مستدركات عائشة- رضي الله عنها- بحكم وثوق علاقتها بالنبي- صلى الله عليه وسلم- تصانيف خاصة على سبيل المثال [انظر: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، للزركشي، تحقيق الدكتور رفعت فوزي، مكتبة الخانجي، بالقاهرة سنة ١٤٢١هـ=٢٠٠١م. وعين الإصابة في استدراك عائشة على الصحابة، للسيوطي، تحقيق عبد الله محمد الدرويش مكتبة العلم، القاهرة، سنة ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م].

ثم زادت العناية بالتدقيق في قبول الأحاديث مع أحداث الفتنة في أواخر عهد عثمان- رضي الله عنه- وما بعده، ومع ازدياد النشاط الكلامي في الأوساط العلمية ولا سيما في العراق في ما بعد.

وهذا التنامي في النشاط العلمي الكلامي هو المسئول في نظرنا عن استقلال التأليف في مصطلح الحديث النبوي الشريف؛ ليتوصل من خلال معرفته إلى القدرة على معرفة المقبول من المردود من أحاديث المصطفي صلى الله عليه وسلم. وإلى شيء من هذا فطن الأستاذ الدكتور محمود الطحان في تيسير مصطلح الحديث [ص٩]: "وامتثالا لأمر الله تعالى ورسوله- صلى الله عليه وسلم- فقد كان الصحابة- رضي الله عنهم- يتثبتون في نقل الأخبار وقبولها، ولا سيما إذا شكّوا في صدق الناقل لها، فظهر بناء على هذا موضوع الإسناد، وقيمته في قبول الأخبار أو ردها، فقد جاء في مقدمة صحيح مسلم [١/ ٥٠]

عن ابن سيرين: "قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم".

وهذه النشأة الدينية التي ترمي إلى حماية الحديث النبوي الشريف من وضع الوضاعين تدعم القول بالأثر الإسلامي في نشأة هذه المصطلحات الحديثية.

(٢) أشكال العناية بمصطلحات الحديث النبوي الشريف.

تنوعت أشكال العناية بالمصطلحات الحديثية، وظهرت تجليات هذا التنوع كما يلي:

أولا– العناية بمصطلحات الحديث في مصنفات علوم الحديث.

ثانيا– العناية بمصطلحات الحديث في مصنفات معاجم المصطلحات العامة.

ثالثا– العناية بمصطلحات الحديث في مصنفات معاجم خاصة بها.

(أولا) العناية بمصطلحات الحديث في مصنفات علوم الحديث.

كان من الطبيعي أن تظهر أولى أشكال العناية بالمصطلحات الحديثية، وتفسير المراد منها، وتمييز بعضها من بعض في المؤلفات التي ألفها أهل العلم لشرح مسائل علم الحديث، كما نلاحظ في ما يلي:

(أ) الكتب الكبيرة:

١- كتاب معرفة علوم الحديث، للحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) [اعتنى به الدكتور معظم حسين، المكتب التجاري، بيروت، سنة ١٩٣٥م]. وهو مرتب على أنواع؛ حيث يحرص في مقدمات كل نوع على تعريف المصطلح والتمييز بينه وبين غيره مما يشتبه به؛ كقوله [ص ٢٧]: "المنقطع من الحديث: غير المرسل"، ثم يفيض في تعريفه وبيان أقسامه.

٢- مقدمة ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) [تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٩هـ= ١٩٨٩م]. وهو ممن اعتنى عناية ظاهرة بشرح معاني المصطلحات الحديثية في مقدمات الأبواب، بحيث يمكن أن نقرر في اطمئنان أن ما ورد من تعاريف للمصطلحات في مقدمات الأبواب في هذا الكتاب يمكن أن يمثل معجما صغيرا عند تجريده. ومن أمثلة تعريفاته قوله [ص ٥٠٦]: "التابعي من صحب الصحابي".

٣- الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) [تحقيق الدكتور محمد رأفت سعيد، دار الوفاء، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م، ثم أخرجه الدكتور محمود الطحان بمكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م]. حيث كان يعرف في مقدمات بعض فصوله ببعض المصطلحات الحديثية، كما فعل مع ذكره لأفضل أنواع القراءة على المحدث [الطحان ٢٨١/١ (الباب ١٦)].

٤- الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) [اعتنى به محمد الحافظ التيجاني وعبد الحليم محمد عبد الحليم وعبد الرحمن حسن محمود، دار الكتب الحديثية، القاهرة، ١٩٧٢م]. حيث كان يعنى بتحرير معاني المصطلحات الحديثية في مفتتح أبواب الكتاب، كما ترى في حديثه عن التدليس [ص ٥٠٨] الذي يقول فيه: "أدنى ما يكون منه أن يرى الناس أنه سمع ما لم يسمع".

٥- التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، للحافظ العراقي (ت ٨٠٦هـ) [تحقيق عبد الرحمن محمد محمد عثمان، دار الفكر العربي، بلا تاريخ !]. وقد زاد الحافظ فبين مصدر التعريف الثابت عند ابن الصلاح، وعلق على التعريف موضحا ومبينا؛ فيقول في التعليق على تعريف التابعي السابق [ص ٣١٧] هو من تعريف الخطيب، وبين أن الإطلاق مخصوص بالمتابعة بإحسان، وبين بعض المعلومات الصرفية بأن الواحد من التابعين يسمى: تابعا وتابعيا على غير ذلك من المعلومات التي تقترب بهذا الجهد من مفهوم المعجمية المعاصرة في بعض أبوابها.

٦- تدريب الرواي شرح تقريب النواوي، للسيوطي [تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الكتب الحديثية، القاهرة، سنة ١٣٨٥هـ= ١٩٦٦م]. وهو يعنى بتعريف المصطلح في مدخل الباب من مثل تعريفه لمصطلح الحسن [١٥٣/١] بأنه: "هو ما عرف مخرجه واشتهر رجاله"، وهذا تعريف الأصل الذي هو التقريب، ثم يأتي السيوطي في الشرح فيقر هذا التعريف، ويزيد في قيود حد الصحيح أيضا.

٧- الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ) [تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث بالقاهرة، والمكتبة العتيقة بتونس ١٩٨٧م]. وهو يجمع في مقدمة كل باب المصطلحات الأساسية، ثم يعود فيعرفها، ومن مثل ذلك قوله في تعريف

مصطلح الخط، وهو من مصطلحات الأخذ [ص١١٦]: "وهو الوقوف على كتاب بخط محدث مشهور يعرف خطه ويصححه وإن لم يلقه ويسمع منه، أو لقيه ولكن لم يسمع منه كتابه هذا".

فهذا النوع من مؤلفات علوم الحديث اعتنت بشروح المصطلحات، باعتبار هذه العناية من لوازم التأليف ومن مداخله التي تكمل بها.

(ب) المختصرات في علوم الحديث:

وقد اعتنت هذه المختصرات ببيان معاني المصطلحات مما يقترب بهذه المصطلحات من مفهوم المعاجم الذي نسعى إلى تحريره، وهو ما قاد واحدا من أشهر اللغويين المعاصرين وهو الدكتور رمضان عبد التواب- رحمه الله تعالى- إلى اعتبار بعض هذه المختصرات معاجم مصطلحات خاصة بمصطلح الحديث النبوي الشريف؛ حيث أورد في الفصل الثاني من كتابه (دراسات وتعليقات في اللغة) بعنوان (معاجم المصطلحات العربية) [ص ٣٧]- أورد شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، لابن حجر، باعتباره معجما من معاجم مصطلحات الحديث، فيقول: "وهذا أحد معاجم مصطلح الحديث من معاجم المصطلحات الخاصة في العربية وهو كتاب: "شرح نخبة الفكر...[رقم ٧ فيما يلي]".

١- التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث، للنووي (ت٦٧٦هـ) [نشره عبد الله عمر البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م]. حيث يفتتح النووي كل فصل بالنص على تعريف المصطلح أو بيان معنى الحد، يقول مثلا في تعريف الصحيح [ص ٢١]: "حده: وهو ما اتصل سنده بالعدول وإذا قيل من غير شذوذ ولا علة وإذا قيل صحيح فهذا معناه لا أنه مقطوع به، وإذا قيل غير صحيح فمعناه لم يصح إسناده". والشاهد هنا التفات النووي إلى أهمية البدء ببيان الحد أو التعريف.

٢- المختصر في علم أصول الحديث النبوي، لابن النفيس [تحقيق الدكتور يوسف زيدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٢هـ= ١٩٩١م]. وظهرت عناية ابن النفيس بشروح المختصر من مفهوم المعجم المختص الذي نسعى إلى تحرير معناه، وهو ذكر المعنى

اللغوي بين يدي المعنى الاصطلاحي. ومن الأمثلة على ما نقرره [ص ١٠٥]: "التواتر في اللغة هو التتابع، وهو ورود شيء بعد آخر. وأما في الاصطلاح (أي في اصطلاح الحديث النبوي الشريف) فإن الخبر المتواتر هو: خبر أقوام بلغوا في الكثرة إلى حد يمنع العقل من توافقهم في ذلك على الكذب".

٣- الاقتراح في بيان الاصطلاح، لابن دقيق العبد (ت٧٠٢هـ) [دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م]. وقد اعتنى ببيان معاني المصطلحات الحديثية فقدّمها في أوائل الأبواب والفصول في مثل قوله [ص ٢٣]: "المدرج: وهي ألفاظ تقع من بعض الرواة متصلة بلفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون ظاهرها أنها من لفظه، فيدل دليل على أنها من ألفاظ الراوي".

٤- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، لابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، وهو اختصار لمقدمة ابن الصلاح [تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، دار التراث، القاهرة، ١٣٩٩هـ=١٩٧٩م]. وقد اعتنى كغيره من أصحاب المختصرات بتعريفه المصطلحات الحديثية في مقدمات الأبواب والفصول، وزاد أمرا آخر جديدا وهو الاستقصاء في تعريفات المصطلح الواحد، مما ترى له مثلا في تعريف مصطلح الحسن؛ حيث أورد تعريف الترمذي، ثم أورد [ص ٣٢] تعريفات أخرى للحسن.

٥- التذكرة في علوم الحديث، لابن الملقن (ت ٨٠٤هـ) [نشرها علي حسن علي عبد الحميد، دار عمار، الأردن، سنة ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م]. وهذه التذكرة أقرب وفاء لمفهوم المعجم؛ حيث اعتنت عناية فائقة بتعريف المصطلحات موزعة على الموضوعات، ومن أمثلة تعريفاته قوله [ص ١٤]: "المسند: وهو ما اتصل إسناده على النبي صلى الله عليه وسلم، ويسمى موصولا أيضا".

٦- المختصر في أصول الحديث، للجرجاني (ت ٨١٦هـ) [تحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٤٠٣هـ، ونشره أيضا الدكتور مصطفي أبو سليمان الندوي، مكتبة نزار مصطفي الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ]. وهو كابن الملقن كان وفيا لمفهوم المعجم؛ حيث

اقتصر في الغالب على تعريف المصطلحات في المقام الأعلى، وإن اعتنى عناية قليلة ببعض التقسيمات والآراء الخلافية، والتفصيلات في المسائل. ومن أمثلة تعريفاته [د/ فؤاد عبد المنعم، ص ٥٥]: "الشاذ: ما رواه الثقة الحافظ مخالفا لما رواه الناس".

٧- شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) [نشر في مطبعة مصطفي البابى الحلبي القاهرة ١٣٥٢هـ= ١٩٣٤م، ثم حققه محمد عوض بمكتبة الغزالي بدمشق، ومؤسسة مناهل العرفان ببيروت، سنة ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م]. وقد عده في ما– نقلنا سابقا– الدكتور رمضان عبد التواب معجما من معاجم المصطلحات العربية الخاصة بعلم الحديث، وهو ما نخالفه فيه. وقد ظهر من مقدمة الكتاب موجه العناية إلى شرح اصطلاح علم الحديث، ومن أمثلة تعريفاته قوله في تعريفه مصطلح الوجادة [ص ١٤٠]، وهو من مصطلحات تَحمُّل العلم وأخذه: "وهي أن يجد بخط يعرف كاتبه فيقول وجدت بخط فلان". وهذا الكتاب نشر أيضا بعنوان نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر [بتحقيق الدكتور عبد السميع الأنيس وعصام الحرستاني بدار عمار بالأردن، ١٤١٩هـ= ١٩٩٩م، وكذلك نشره بعنوان (شرح نزهة النظر على نخبة الفكر) الدكتور مصطفى أبي سليمان الندوي، بمكتبة الإيمان بالمنصورة، ١٤١٧هـ. وهي جميعا تخالف– باستثناء طبعة عبد السميع الأنيس– أصول نشر الكتب التراثية!].

٨- قفوة الأثر في صفوة علم الأثر، لابن الحنبلي [تحقيق عبد الفتاح أبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، بحلب، ١٤٠٨هـ]. ومن أمثلة عنايته بتعريف المصطلحات [ص٤٧]: "العزيز: ما لم يروه أقل من اثنين عن أقل منهما، بأمر رواه اثنان عن كل من اثنين وهكذا".

٩- تحقيق المختصر من مصطلح الأثر للعجمي الشنشوري (ت ٩٩٨هـ) [تحقيق محمد أحمد بدوي، ومراجعة أحمد حسن جابر، مجلة الأزهر، ربيع الآخر ١٤٠٥هـ]. وهو يعتني بإيراد التعريفات المختلفة للمصطلح الواحد على اختصاره، ومن أمثلة ذلك قوله في تعريف المرسل [ص٢٤]: "المرسل على المشهور ما رفعه التابعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: ما رفعه التابعي الكبير. وقيل: ما سقط من سنده راو أو أكثر، سواء من أوله أو آخره أو وسطه".

١٠-بلغة الأريب في مصطلح أثار الحبيب، للزبيدي صاحب تاج العروس (ت١٢٠٥هـ) [تحقيق عبد الفتاح أبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ١٤٠٨هـ]. وتتجلى قيمة هذا الكتاب في أنه يحسم الرأي في أن هذه المختصرات وإنْ اعتنت عناية فائقة ببيان معاني المصطلحات الحديثية، فإنها لا يمكن أن تسمى معاجم مصطلحات حديثية؛ إذ إن الزبيدي معجمي كبير لم تظهر آثار معرفته المعجمية في هذا المختصر؛ لأنه ليس معجما بالمعنى العلمي المتواتر عند دارسي الصناعة المعجمية.

١١-منحة المغيث في علم مصطلح الحديث لحافظ حسن المسعودي، الحلبي، ١٩٦٧م.

وقد أطلنا قائمة مختصرات علم مصطلح الحديث لاعتبارات عدة منها:

١- بيان تواتر العناية بشرح مصطلحات هذا العلم الشريف زمانا؛ لأن الحديث الأصل الثاني الأكبر من أصول الشريعة بعد كتاب الله العزيز.

٢- بيان تواتر العناية بشرح مصطلحات هذا العلم على امتداد الجغرافية الإسلامية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

٣- بيان أن هذه المختصرات مع عنايتها الفائقة بتعريف المصطلحات الحديثية خرجت عن أن تكون معاجم مختصة بمصطلحات هذا العلم، لرعايتها مبادئ الترجيح، والتدليل، وغرس مسائل العلم وإن باختصار، مع غياب كثير جدًّا من المعلومات اللازم توافرها في الأعمال المعجمية.

(ج) المنظومات في مصطلحات الحديث:

فقد شاع كذلك العناية بتعريف المصطلحات الحديثية في نوع آخر من أنواع التصنيف في علوم الحديث، وهو نوع المنظومات التي ظهرت لأغراض تعليمية تعين على استظهار المعلومات. ومن أشهرها في تاريخ التصنيف عند المسلمين:

١- المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.

٢- ألفية السيوطي في مصطلح الحديث.

ومثلما ظهرت العناية بتعريف المصطلحات في المؤلفات المنثورة – كما مر بنا– ظهرت كذلك في المنظومات؛ تيسيرا لحفظها، يقول السيوطى [بيت ١٠٩/ص ٣٥] في تعريف الضعيف :

هو الذي عن صفة الحسن خلا وهو على مراتب قد جعلا

ويقول البيقوني في تعريف المرسل، والغريب [ص ٢٧ /٢٩]:

ومرسل منه الصحابي سقط وقل غريب ما روى رادٍ فقط

وما يقترب بهذه المؤلفات ولا سيما في قسميها الأخيرين (المختصرات والمنظومات) من اعتبارها معاجم للمصطلحات الحديثية مع التجوز والتوسع، السمات التالية:

١-الاختصار والاكتفاء في الغالب بتعريف المصطلحات، والبدء به في المقام الأول، وإن ورد بجوارها معلومات أخرى حول المسائل.

٢-ظهور لفظ (مصطلح /واصطلاح) ومشتقات أخرى من جذرهما في عنوان كثير من هذه المصنفات.

٣-دوام العناية بالمعنى الاصطلاحي للألفاظ العلمية في مداخل البواب في هذه الكتب مما يعكس وعيا بقيمة بيان المعاني.

٤- قلة المعلومات عن الموضوعات الحديثية والمسائل الفنية الموزعة على علوم الحديث المختلفة، إذا ما قورنت بحجم العناية بشرح معاني المصطلحات.

(ثانيا) العناية بمصطلحات الحديث النبوي الشريف في معاجم المصطلحات العامة.

عرف التصنيف المعجمي عند المسلمين فرعا مهما جدًّا من المعاجم المختصة، تفرغت لجمع مصطلحات العلوم المختلفة وتبويبها هجائيا أو عَلَميا موضوعيا، وشرح معاني هذه المصطلحات.

ويهمنا هنا أن نقرر أن ثمة معجما تراثيا صنع بابا، هو الباب الثاني لمصطلحات الحديث النبوي الشريف، وهو معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم المنسوب خطأ

للسيوطي. وهو صورة مصغرة مختصرة للمعجم بمعناه الاصطلاحي، وقد أورد ما يقرب من سبعين مصطلحا وعرفها من غير أي تطرق لمسائل علمية، أو موضوعات.

وقد امتدت العناية بمصطلحات الحديث في المعجمية العربية التراثية المختصة فطالت المعاجم الاصطلاحية العامة المرتبة هجائيا، كما نرى في التعريفات للجرجاني، وابن كمال باشا، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، ودستور العلماء للأحمد نكري.

(ثالثا) معاجم المصطلحات الحديثية في العصر الحديث.

وكان لتنامي الإدراك لقيمة المعاجم المختصة، وتوسع دائرة التصنيف فيها في العصر الحديث- أثر في ظهور معاجم مستقلة للعناية بمصطلحات علم الحديث النبوي. وأشهر هذه المعاجم- مرتبة وفق تاريخ صدورها- هي:

١-قاموس مصطلحات الحديث النبوي الشريف، لمحمد صديق المنشاوي، وتقديم الدكتور محمود عبد الرحمن عبد المنعم، دار الفضيلة، بالقاهرة سنة ١٩٩٦م.

٢-معجم المصطلحات الحديثية، للدكتور محمود طحان، والدكتور عبد الرازق خليفة الشايجى، والدكتور نهاد عبد الحليم عبيد، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت، ع ٣٦ شعبان ١٤١٩هـ= ديسمبر ١٩٩٨م، (ص ٩٥-١٧٤).

٣-معجم مصطلحات الحديث ولطائف الأسانيد، للدكتور محمد ضياء الرحم الأعظمي، أضواء السلف، الرياض، سنة ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.

٤- معجم مصطلح الحديث النبوي، لمجمع اللغة العربية، القاهرة، سنة ١٤٢٢هـ= ٢٠٠٢م.

وهذه الأربعة نصت في عنواناتها على انتمائها المعرفي إلى المعاجم، وهي جميعا استثمرت المعرفة المعجمية التي ترى في المنهج الهجائي الألفبائي أيسر المناهج، فرتبت المصطلحات على وفاق الترتيب الألفبائي حسب منطوق الكلمة أو شكلها المستعمل؛ من غير رد إلى الجذور؛ إمعانا في التيسير على مستعملي هذه المعجمات.

وبعض منها استعمل تقنيات طباعية (٢/١ على التعيين)، من مثل كتابة المصطلح ببنط قاتم أغلظ من بنط الشروح؛ تيسيرا على المستعملين.

وبعضها استعمل الإحالات المعجمية تحقيقا لتماسك المعجم، ولتنبيه المستعمل على ضرورة مراجعة بعض المصطلحات عند طلب معنى بعض آخر لتعلقهما وارتباطهما دلاليا، كما في (رقم ٤).

كما اعتنت هذه الأربعة بمبدأ توثيق المصطلحات وتعريفاتها بطرق توثيقية مختلفة.

وقد حرصت هذه المعجمات الأربعة في الغالب على استعمال طريقة التعريف بالمحكم في شروحها للمصطلحات، وهي طريقة تذهب على جمع السمات الدلالية الأساسية المكونة لمفهوم المصطلح، من مثل القول في تعريف الرواية في (قاموس مصطلحات الحديث النبوي الشريف) [ص٦١]: "الرواية: حمل الحديث ونقله وإسناده على من عزى إليه". ويضيف (معجم المصطلحات الحديثية) بعد ما مضى: "بصيغة من صيغ الأداء".

وقد تقاربت المجموعة في العناية ببعض المعلومات الصرفية واللغوية التي تعين على توضيح المعنى الاصطلاحي، مع العناية في بعضها بالنطق، أو بضبط بنية المصطلحات. وإن وقع بعضها، ولا سيما (قاموس مصطلحات الحديث النبوي) في عيوب كثيرة منها ما يسمى بعيب التعريف بالدور، وهو شرح مصطلح بالإحالة إلى غيره، فإذا ذهبت إليه ردك على الأول من مثل:

ص٣٧- "التجويد = ويسمى التسوية".

ص٤٢- "التسوية = ويسمى التجويد"!

على أن أخطر شيء في هذه الأربعة هو إخلالها بعدد كبير من المصطلحات الحديثية؛ بسبب من نقص في استقراء مادتها، وإهمالها في الإفادة من المصطلحات الحديثية التي وردت في معاجم المصطلحات العامة التي تحدثنا عنها هنا في الفقرة (ثانيا).

ومما أخلت به هذه المعاجم من مصطلحات ما يلي:

(الرسالة/ والرسول/ والتدوين/ والتقرير/ والتوهم/ والرؤية/ والشرط/ والشك/ وفعل النبيي صلى الله عليه وسلم/ واللفظ المركب في القضية الملفوظة/ والمستند/ ولفظه صلى الله عليه وسلم/ ومشكل الحديث/ والمنفصل منه/ إلى غير ذلك).

وهذا الإخلال سمة في الأربعة جميعا مع تفاوت في قدر إخلال كل منها.

ولعل هذه المراجعة الموجزة لعناية المسلمين قديما وحديثا بضبط مصطلحية علم حديث النبي- صلى الله عليه وسلم- في أشكال متنوعة دالة على قيمة هذا العلم، وخطر التهوين من الأمر، لأن السنة- بعد القرآن ومعه- أصل الأصول التي تقوم عليها الشريعة، وينضبط وفقها المنهاج.

وهي تدل كذلك على مدى ما يحتاجه هذا المجال من معاجم أوسع، وأكثر ضبطا وجمعا، وأتقن صناعة؛ لأن المقام مقام جليل نعين فيه على بيان المقبول من حديث رسول الله- صلى الله عليه وسلم- من المردود.

***

.

ثانيا
مصطلحات علم الجرح والتعديل في العربية
(مصادرها وأنماطها وقيمتها الحضارية)

حرصت الفكرة الإسلامية من بدايتها على العناية بما يؤسس لها من نصوص، وأحاطت ذلك كله بعدد وافر من التدابير المانعة من تزوير هذه النصوص، وهو الأمر الذي بدا واضحا من خلال الأمر النبوي الشريف بحفظ الوحي، وتأديته على وجهه الذي صدر عليه، يقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: "نضر الله وجه امرئ سمع مقالتي فوعاها، ثم أداها كما هي" [سلسلة الأحاديث الصحيحة، ص٢٠٥، حديث ١١٢١]، وهناك أحاديث كثيرة تأمر بحفظ السنة المشرفة، وتنهي عن الكذب والدس عليها، عمدتها جميعا حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم: "من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" [أخرجه السيوطي، وصححه في الجامع الصغير ١٨٦/٢].

ومن أجل ذلك وغيره تفردت الحضارة الإسلامية بعلم الجرح والتعديل؛ ذلك العلم الذي يعنى ببيان أحوال رواة حديث رسول الله- صلى الله عليه وسلم- من جهة العدالة والضبط، أو من جهة عدمهما، وبهذا نستطيع أن نقرر أن علم الجرح والتعديل، وجزءًا من جهازه الاصطلاحي نشأ في العصر النبوي الكريم بدافع ديني وتعبدي بامتياز.

وقد ثمن كثير من العلماء ظهور هذا العلم، وعدوه علامة على ترقي الحياة العقلية والعلمية للمسلمين، أذكر منهم فرانتز روزنتال في كتابه عن مناهج التأليف عند المسلمين.

(١) مصادر مصطلحية علم الجرح والتعديل: مقال في التنوع المذهل.

ينظر إلى علم الجرح والتعديل من جهتين، إحداهما تراه فرعا من علم مصطلح الحديث، وأخراهما تراه علما مستقلا، ولا تناقض بينهما إلا من جهة درجة العناية، والخدمة العلمية.

ويملك علم الجرح والتعديل مجموعة كبيرة من المصطلحات تحمل مفاهيمه؛ تسمى بمصطلحية الجرح والتعديل، ويحتفظ التصنيف العربي الإسلامي بعدد وافر من أنواع المصادر التي تعد المركز الجامع لمصطلحية هذا العلم.

ومن المهم أن نقرر أن هذه المصادر ليست جميعا على درجة واحدة من الأهمية بطبيعة الحال، لكنها جميعا لازمة عند فحص هذه المصطلحية أو جمعها، أو بيان مفهوماتها ومعانيها.

وفي ما يلي محاولة لرصد مصادر مصطلحية علم الجرح والتعديل الموزعة على نوعيها الأساسي والثانوي:

أولا- كتب شروح السنة الشريفة.

ذلك أن عددا من هذه المدونات الشريفة كانت قد أفردت عددا من أبوابها لبيان الأمر بحفظ السنة، والنهي عن الوضع فيها، أو الكذب عليها.

وليس من شك في أن شروح هذه الأبواب قد تضمن بعض مصطلحات أحوال الرواة، وبيان الرأي في عدالتهم ودينهم وتقواهم وورعهم، وضبطهم وإتقانهم.

ولعل الشروح المطولة من مثل: فتح الباري لابن حجر، وشرح النووي على صحيح مسلم هي العمدة في هذا الباب.

ثانيا- تفاسير القرآن الكريم.

لقد جاء في الذكر الحكيم عدد من الآيات، تعالج في ما تعالجه قضية التفسيق، والتعديل، وآثارها على حركة المجتمع، وما ينشأ عنه من علاقات، من مثل قوله تعالى: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[سورة الحجرات ٦/٤٦]، وفحص هذه الآية الكريمة ينتج إمكان الخروج بمصطلحين من مصطلحية علم الجرح والتعديل هما:

١-الفاسق، وقد انتقل هذا اللفظ بدلالته اللغوية والقرآنية إلى المجال الاصطلاحي.

٢-الجهالة، وقد انتقل هذا اللفظ بعد تطوير في دلالته اللغوية والقرآنية عن طريق تخصيص دلالته أو تضييقها.

ومن هنا فإن مراجعة هذه التفاسير ولا سيما الموسعة تمثل كنزا، وإن يكن ثانويا لجزء من مصطلحية هذا العلم الخطير.

ثالثا- كتب التاريخ العام.

تعنى كتب التاريخ العام، ولا سيما تلك التي تعنى بالتأريخ للعلماء، وطبقاتهم، والحكم عليهم، بعدد وافر من المعلومات التي تدخل في الصميم من اهتمام علم الجرح والتعديل، ومن ثم فهي بشكل أو بآخر من المصادر المهمة لمصطلحيته، بما هي معينة في كثير من مادتها أحوال الرواة، واتخاذ موقف منهم بناء على ما توافر من حيواتهم، وصفاتهم الشخصية، وصفاتهم العلمية.

رابعا- كتب علم الحديث، أو كتب مصطلح الحديث.

ذلك أن علم التحديث في انشغاله بفرعي الحديث أو جزأيه؛ السند والمتن، يعنى بطبيعة تكوينه بالمصطلحات الحالمة لمفاهيم أحوال الرواة تعديلا وتجريحا.

ولعل كتب أمثال ابن الصلاح، والبلقيني، والرامهرمزي، والسيوطي، والنووي، والخطيب البغدادي، والقاضي عياض من المصادر المهمة في هذا السياق بما تحويه من مصطلحات الجرح والتعديل في بعض أبوابها التي خلصت لمعالجة بعض أسباب رد الأحاديث بسبب من أحوال رجال السند، أو بعض أسباب قبول الأحاديث بسبب من أحوال رجال السند من جهة أخرى.

خامسا- كتب الرجال، أو معاجم الشيوخ وما في منزلتها.

وذكر هذا النوع من مصادر مصطلحية علم الجرح والتعديل يبدو منطقيا؛ إذا عرفنا أن علماء الحديث يعدون كتب الرجال المصدر المهم المركزي لهذا العلم، وقد تنوعت كتب الرجال، واتخذت مناهج مختلفة يمكن إجمال أهمها في ما يلي:

يقول سيد عبد الماجد الفوري في (معجم المصطلحات الحديثية) [ص٢٨١-٢٨٢ دار ابن كثر، دمشق، ١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م]: "أهم مصادر الجرح والتعديل:

١- كتب الثقات، لأمثال ابن صالح العجلي المتوفى ٢٦١هـ، وابن حبان البستي المتوفى سنة ٣٥٤هـ، وابن شاهين الواعظ المتوفى سنة ٣٨٥هـ، والذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ.

٢- كتب الضعفاء، لأمثال البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ، والنسائي المتوفى سنة ٣٢٢هـ، وابن موسى العقيلي المتوفى سنة ٧٤٨هـ، وغيرهم.

٣- الكتب الجامعة بين الثقات والضعفاء، لأمثال البخاري، أبي يعلى القزويني المتوفى سنة ٤٤٦هـ، وابن عبد الهادي المتوفى سنة ٩٠٩هـ، وغيرهم.

٤- كتب رواة كتاب حديث بعينه، من مثل: رجال البخاري للكلاباذي المتوفى ٣٩٨هـ، ولأبي الوليد الباجي المتوفى سنة ٤٧٤هـ، ورجال مسلم لابن منجويه الأصفهاني المتوفى سنة ٤٢٨هـ، ورجال الموطأ للسيوطي المتوفى ٩١١هـ، وغيرهم.

٥- كتب الرجال الخاصة ببلد بعينه، من مثل: تاريخ علماء أهل مصر لابن الطحان المتوفى سنة ٤١٦هـ، وأخبار أصبهان لابن نعيم المتوفى سنة ٤٣٠هـ، وتاريخ جرجان للسهمي المتوفى سنة ٤٢٧هـ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ، وغيرهم.

٦- كتب السؤالات، من أمثال: سؤالات ابن الجنيد المتوفى سنة ٢٦٠هـ، ولابن معين المتوفى سنة ٢٣٣هـ، وسؤالات ابن أبي شيبة، لابن المديني المتوفى سنة ٢٣٤هـ، وغيرهم.

سادسا- كتب الأمالى الحديثية.

وهي كتب بطبيعتها تضم عددا من الأمالى التي تتوجه إلى عدد من مسائل الجرح والتعديل، ومن ثم فهي تحوى عددا من مصطلحاته، مما يجعلها مصدرا من مصادرها.

سابعا- كتب تصنيف العلوم.

عرفت حركة العلم عند المسلمين نوعا من التصنيف يعنى بالتعريف بالعلوم، وأقسامها، المختلفة، وذكر أشهر الكتب في كل علم منذ زمن مبكر من عمر الإسلام.

وقد ورد في كثير من هذه الكتب باب يعرف بهذا العلم وبمصنفاته، وهو ما استلزم ذكر عدد من المصطلحات الخاصة ببعض قضاياه ومسائله.

يقول صديق حسن خان القنوجي في أبجد العلوم [١٧٩/٢]: "علم الجرح والتعديل: هو علم يبحث فيه عن جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة (هي مصطلحاته) وعن مراتب تلك الألفاظ". ومن المصنفات المعروفة في هذا الميدان:

١- أبجد العلوم، لصديق حسن خان القنوجي ١٣٠٧هـ.

٢- مفتاح السعادة، لطاش كبري زاده سنة ٩٦٨هـ.

ثامنا- معاجم المصطلحيات، أو معاجم المصطلحيات المتعددة العلوم.

عرف التراث المعجمي العربي مجموعة كبيرة من المعجمات الجامعة لمصطلحات العلوم جميعا التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية.

وقد ضمت هذه المعاجم، ولا سيما المعاجم المصنفة تصنيفا موضوعيا يجعل لكل مصطلحية علم فصلا بعينه- فصولا تشرح مصطلحات علم الحديث، ومصطلحات الجرح والتعديل فرع منه.

وقد اشتملت المعجمات التالية على عدد من مصطلحات علم الجرح والتعديل:

١- مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، المنسوب للسيوطي ٩١١هـ.

٢- التعريفات، للسيد الشريف الجرجاني ٨١٦هـ.

٣- التعريفات والاصطلاحات، لابن كمال باشا سنة ٩٤٠هـ.

٤- التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي سنة ١٠٣١هـ.

٥- الكليات، للكفوي ١٠٩٤هـ.

٦- كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي ١١٥٨هـ.

٧- جامع العلوم في اصطلاحات الفنون = دستور العلماء، للأحمد نكري سنة ١١٧٣هـ.

ومراجعة هذه المعجمات جميعا وفق منهجية ترتيب كل منها يقود إلى الحصول على مجموعة كبيرة من مصطلحات هذا العلم، وفي ما يلي أمثلة على ذلك الذي نقرره:

- مصطلح الثقة في التوقيف للمناوي [ص٢٢١]، والتعريفات للجرجاني [ص ٧٥]، والكليات [١٣٢]، والتعريفات لابن كمال باشا [١٥٢]، ودستور العلماء [٣٧٦/١].

- م الضبط في التعريفات للجرجاني [١٤٢]، وابن كمال باشا [٢٦٠]، والكليات [٥٧٩]، والتوقيف [٢٢١]، ودستور العلماء [٢٦١/٢]، وكشاف اصطلاحات الفنون [١١١٠/٢].

- م الضعيف في التعريفات للجرجاني [١٤٣]، وابن كمال باشا [٢٦٣]، والكليات [٥٢٩]، ودستور العلماء [٢٦٩/٢].

- م العدل في التعريفات للجرجاني [٥٢]، وابن كمال باشا [٣٣٥]، وكشاف اصطلاحات [١٨٧/٢]، والكليات [٥٥٦]، والتوقيف [٢٨٠]، ودستور العلماء [١١٨/٣]..

وغير ذلك من المصطلحات كثير في مجموع هذه المعجمات مما يجعلها مصادر مهمة في هذا الباب.

تاسعا- معاجم علوم إسلامية متنوعة.

اعتنت مجموعة من العلوم الشرعية بالمصطلحات التجريحية والتعديلية لسبب أو لآخر يدخلها في اهتمامها المعرفي.

ومن هنا فإن معاجم مصطلحات علم الفقه، وعلم أصول الفقه، وعلم أصول الدين، وعلم الكلام، وعلم المنطق ضمت عددا كبيرا من مصطلحات علم الجرح والتعديل؛ لأنها استعملتها جزءًا من جهازها الاصطلاحي لدخولها في صميم مسائلها العلمية، فالكلام عن الراوي– من اعتبارات كثيرة– يمثل جزءًا من بنية هذه العلوم جميعا.

ومما يدل على ذلك ورود عدد من هذه المصطلحات، من أمثلة: تعريف الكذب في الحدود الأنيقة لزكريا الأنصاري [ص ٧٤].

ويعرف الدكتور محمود حامد عثمان مصطلح "الحجة"، وهو من مصطلحات علم الجرح والتعديل في معجمه القاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين [ص١٢٧]؛ بصورة تخدم معناه في علم الجرح والتعديل.

عاشرا- معاجم مصطلحات علم الحديث.

عرفت المعجمية الإسلامية المختصة في العصر الحديث عناية ظاهرة بتصنيف معجمات جامعة للمصطلحات الحديثية قام عليها أفراد ومجامع، وكان طبيعيا أن تضم هذه المعجمات في ما تضمه من مصطلحات عددا من ألفاظ الجرح والتعديل على اعتبار أن هذا العلم جزء أصيل من علوم الحديث النبوي الشريف تبحث في أحوال رواته أو رجاله.

ومن المهم جدًّا استصحاب المعاجم الحديثية التالية ونحن بصدد الحديث عن مصادر مصطلحية الجرح والتعديل، وسوف نوردها مرتبة ترتيبا تاريخيا بحسب صدورها:

١- معجم المصطلحات الحديثية، للدكتور نور الدين عتر، ثم أضاف إليه وحوله إلى معجم ثنائي (عربي/ فرنسي) الدكتور عبد اللطيف الشيرازى الصباغ وداود عبد الله كريل، وصدر سنة ١٩٧٩م.

٢- قاموس مصطلحات الحديث النبوي، لمحمد صديق المنشاوي، صدر بالقاهرة سنة ١٩٩٦م (ودرسه دراسة نقدية الدكتور خالد فهمى في كتابه: ثقافة الاستهانة، القاهرة سنة ٢٠٠٣م).

٣- معجم المصطلحات الحديثية، للدكتور محمود أحمد الطحان، والدكتور عبد الرازق الشايجي، والدكتور نهاد عبد الحكيم عبيد، صدر بالكويت سنة ١٩٩٨م.

٤- معجم مصطلحات الحديث الطائف الأسانيد، للدكتور محمد ضياء الأعظمي، صدر بالرياض ١٩٩٩م.

٥- معجم مصطلحات الحديث، لسليمان مسلم الحرش، وحسين إسماعيل الجمل، صدر بالرياض سنة ٢٠٠١م (الطبعة الأولى منه كانت سنة ١٤١٦هـ).

٦- معجم مصطلح الحديث النبوي، لمجمع اللغة العربية، بالقاهرة، صدر سنة ٢٠٠٢م.

٧- المعجم الوجيز في اصطلاحات أهل الحديث، صدر بالقاهرة سنة ٢٠٠٨م.

٨- معجم مصطلحات الحديث وعلومه أشهر المصنفين فيه، للدكتور محمد أبي الليث الخير آبادى، صدر بعمان ٢٠٠٧م.

٩- الدر النفيس: معجم مصطلحات علوم الحديث، لناصر الحلواني، صدر بالقاهرة سنة ٢٠١١م.

ولتوقف أما مصطلح "المجهول" بما هو من ألفاظ الجرح والتعديل، كاشف عما تقدمه هذه المعجمات المذكورة لمصطلحية هذا العلم الجليل، وفي ما يلي بيان لمواضع وروده في هذه المعاجم العشرة، بترتيب ذكرها هنا:

(١ص٢٥٨/ ٢ص١٠٣/ ٣ص١٤٦/ ٤ص٣٥٢/ ٥ص٥٤/ ٦ص٦٢/ ٧ص٢١٧/ ٨ص٦٦٢/ ٩ص١٣٢/ ١٠ص٣٧٧).

وقد اعتنت هذه المعاجم جميعا بتعريفه، وبذكر أقسامه (مجهول العين/ ومجهول الحال)، وما يدخل معها في علاقات ترادف.

حادي عشر- معاجم مصطلحات الجرح والتعديل.

وقد ظهر متأخرًا عدد قليل من المعجمات المختصة بجمع ألفاظ الجرح والتعديل بشكل مستقل، بغية بيان مفاهيمها، ومراتبها، وقد توصلت إلى عدد منها هي:

١- الشروح والتعليل، لألفاظ الجرح والتعديل، ليوسف محمد صديق، صدر بالكويت ١٩٩٠م.

٢- معجم ألفاظ الجرح والتعديل، لسيد عبد الماجد الغوري، صدر بدمشق سنة ٢٠٠٧م.

٣- معجم ألفاظ وعبارات الجرح والتعديل النادرة والمشهورة، لسيد عبد الماجد الغوري، صدر بدمشق سنة ٢٠٠٧م.

٤- معجم الجرح والتعديل، للدكتور خيري قدري، صدر بالقاهرة ٢٠٠٧م.

وقد اتبعت هذه المعجمات طريقة سهلة في ترتيب الألفاظ؛ سعيا للتيسير على عموم المستعملين، تمثلت في اتباع منهج الترتيب الألفبائي النهائي غير التجريدي المعروف باسم الترتيب الألفبائي الجذعي، الذي يورد الكلمات بحسب أوائلها من غير رد إلى الجذور.

والوقوف أمام هذه المصادر المتنوعة دال على الأهمية المتميزة التي أولتها حركة العلم الإسلامي لهذا الفرع المعرفي، ودال كذلك على وعي العلماء المسلمين بأهمية فحص طرق حمل العلم، وبالعناية بأخطر ما يتعلق بالنقد الخارجي للنصوص المؤسسة للعلم، وهو الأمر الذي قاد إلى تفرد الثقافة الإسلامية بهذا العلم.

(٢) أنماط مصطلحات الجرح والتعديل: مثال على مرونة العربية.

فكرة توزيع ألفاظ الجرح والتعديل على أنماط فكرة تتوخى تحقيق أكثر من هدف يأتي في مقدمتها:

١- معالجتها شكليا للإفادة منها في بنوك المصطلحات، أو المكانز اللغوية.

٢- معالجتها آليا.

٣- قياس قدرة اللسان العربي على التعاطي مع مفاهيم مثل هذا العلم، واستيعابه لها بالتعبير عنها صرفيا.

وفحص مصطلحات الجرح والتعديل يضع أيدينا على نمطين غالبين، هما:

١- نمط الصيغة المفردة.

٢- نمط الصيغة المركبة، بتنوع التراكيب في العربية.

وفي ما يتعلق بنمط الصيغة المفردة، فقد اتخذ هذا النمط أشكالا متنوعة توزعت على أنواع كثيرة من مثل: الاسم بنوعيه: اسم ذات، أو اسم معنى، ومن مثل: المصدر، والمشتق، ومما جاء عليه من المصطلحات (الإمام/ تالف/ ثبت / ثقة / جبل/ جراب/ جيد/ حافظ/ حجة / خيار/ دجال/ ذاهب/رضا/ ساقط/ شيخ/ صدوق/ صويلح/ ضابط/ ضعيف/ فطن/ كاذب/ كذاب/ كيس/ لين / مأمون/ مبتدع/ متروك/

متقن/متماسك/ مطرح/ مطروح/ مطعون / مقارب/ مقبول/ منكر / هالك/ واه/ وسط/ وضاع).

والملاحظ هنا هو غلبة استعمال صيغة المشتق بأنواعها المختلفة (اسم فاعل/ أو الصفة المشبهة به/ أو اسم المفعول/ أو صيغة المبالغة)، وهو أمر يبدو منطقيا؛ لأن طبيعة المشتق بحكم تعريفه لفظ يولد للتعامل مع المعاني الطارئة، لولاها لم يولد.

أما النمط الآخر، وهو نمط الألفاظ التي اتخذت شكلا مركبا، فقد تنوعت صوره، لتظهر مصطلحات الجرح والتعديل في الصور التالية:

١- المركب الإضافي.

٢- المركب الوصفي.

٣- المركب الإسنادي (الاسمي/ والفعلي).

وفي ما يلي محاولة أولية لتوزيع ما جاء من مصطلحات الجرح والتعديل على هذا النمط؛ فمن أمثلة ما جاء على صورة المركب الإضافي (وصورته: مضاف + مضاف إليه اسم ظاهر): (حمالة الحطب/ رجل سوء / سارق الحديث / متروك الحديث/ مجهول العين/ جيد الحديث / صالح الحديث / ضعيف الحديث/ وغير ذلك).

ومن الأمثلة التي جاءت على صورة المركب الإضافي (وصورته: مضاف + مضاف إليه ضمير): (إباضي/ خشبي/ صفري/ عثماني / قدري/ قعدي/ ناصبي/ واقفي/ وغير ذلك).

وثمة عدد آخر من المصطلحات جاء على نمط التركيب الوصفي، مكون من موصوف وصفته من مثل: (ثبت حافظ/ ثبت حجة / ثقة ثبت/ ثقة جبل / صدوق ثقة/ صدوق مبتدع/ عدل حافظ / عدل ضابط / متقن ثبت/ وضاع واه/ وغير ذلك).

وثمة عدد آخر أكثر تواترا جاء على نمط التركيب الإسنادي بصوره الثلاثة؛ الاسمي والفعلي، وشبه الجملة، ومن أمثلتها جميعا: (البلاء فيه من فلان/ جبل في الكذب/

صدوق له أوهام / غيره أقوى منه/ فلان أحب إلى فيه / فلان أوثق منه/ فلان تعرف وتنكر / له أوابد/ له غرائب/ وغير ذلك).

وربما جاء التركيب الاسمى مفتتحا بفعل ناسخ من مثل : (ليس بالثقة/ ليس بالحافظ/ ليس بالحجة / ليس بشيء / ليس من أهل الحفظ/ إلخ).

وربما جاء التركيب الاسمى مفتتحا بلا النافية للجنس وهي ملحقة بالحروف الناسخة من مثل : (لا أحد أثبت منه/ لا شيء/ إلخ).

ومما جاء من هذه المصطلحات في صورة تركيب فعلي: (اختلف فيه / ارم به/ تركوه/ تغير/ سكتوا عنه/ طعنوا فيه / طرحوه/ يتكلمون فيه / يروى عنه/ إلخ).

وتفسير كثرة أمثلة هذا النمط التركيبي الإسنادى راجع إلى التنوع الذي يتميز به التركيب الإسنادي الاسمى بتعدد أشكال خبره، وبدخول النواسخ عليه، والتركيب الفعلي بتعدد أشكاله بناء للمعلوم والمجهول، وإثباتا ونفيا، وهو التنوع المناسب لتنوع أحوال الرواة جرحا وتعديلا.

وهذان النمطان الرئيسان وما تفرع عنهما من أنماط تحتهما دليل حاسم على مرونة اللغة العربية.

(٣) القيمة الحضارية لمصطلحات الجرح والتعديل في العربية :

الإسلام يرتقى بالمعرفة الإنسانية.

إن دراسة الجهاز الاصطلاحي لعلم الجرح والتعديل تنتج حقيقة مهمة جدًّا مفادها الإخلاص العظيم للعلم، وتقدير منزلته السامية عن طريق حياطته بعلم كامل يقف أمام حامليه، ورواته للناس بفحص أحوالهم، وبيان صفة كل راو من جهة الجرح والرد واطراح المرويات، أو من جهة التعديل والقبول، واعتماد المرويات.

وهذه أول قيمة من القيم الحضارية الكامنة في هذا الجهاز الاصطلاحي لهذا العلم، ذلك أن حماية العقل المسلم بحماية ما يروي له، أو ينقل إليه من مواد العلم المختلفة بعد حضاري مهم جدا يعكس الروح الحضارية التي أنبتها الإسلام في تربة الثقافة الإنسانية.

ومن جهة ثانية فقد أمد هذه الجهاز الاصطلاحي منهج العلم الإسلامي ثم الإنساني روحا نقدية دعمت ما ورثته مناهج العلوم عن اليونان القدماء، وغذته، وعمقت جذور هذه الروح النقدية، وفتحت أمامها آفاقا جديدة لم تكن موجودة من قبل.

ومن جهة ثالثا فقد أوجد هذا الجهاز الاصطلاحى مثال على قدرة العقل العربي بفضل الإسلام العظيم على الابتكار والتجديد، وتأسيس المعرفة اللازمة لتعميق آثار العلم في الحياة.

ومن جهة رابعة فقد أعطى هذا النموذج شعورا قويا بقدرة اللسان العربي على استيعاب المفاهيم المستحدثة، بما ظهر من مرونتها في التعبير الشكلي أو الصرفي عن مفاهيم الجرح والتعديل في صور وأنماط متنوعة بشكل ظاهر.

ومن جهة أخرى فإن ما تراكم من مصادر الجهاز الاصطلاحي لعلم الجرح والتعديل أثر آخر مهم جدا لما قدمه هذا الفرع المعرفي من دليل على ترقية الإسلام للحضارة والحياة العقلية العربية والإسلامية بوجه خاص والإنسانية بوجه عام.

ولم تقف حدود هذا الأثر الحضاري عند حدود التطبيقات في مجال علم الحديث النبوي الشريف فقط، وإنما تجاوزته إلى عدد آخر من العلوم في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية فأثرت في مناهجها المختلفة.

ومن أظهر الأمثلة على التأثر بمناهج الجرح والتعديل في مجال دراسة اللغة العربية ما يلي:

أولا- تصميم عدد من المعجمات العربية على نتائج علم الجرح والتعديل، وتطبيقاتها على المرويات اللغوية على ما نرى في بناء معجم تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، المعروف بمعجم الصحاح، وفي معجم تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، حيث ظهر من خلال بنائهما ومقدماتهما التأثير الواضح والمباشر لقيمة بيان أحوال علماء اللغة ورواتها وصولا إلى تقدير مروياتهم في هذا الباب العلمي.

ثانيا- تصميم قطاع من أدبيات فقه اللغة، على ما أحدثه علم الجرح والتعديل في الحضارة العربية، وهو ما نراه بشكل واضح جدا في بناء كتاب (المزهر في علوم اللغة)

للسيوطي، وهو أوسع مصادر فقه اللغة العربية القديمة، حيث استلهم السيوطي منجز علم الحديث ولا سيما في فرع الجرح والتعديل في تقسيماته للكتاب، وتقسيماته لقضاياه ومسائله ومعالجاته التفصيلية.

ومن هنا فإننا نقرر بشكل إجمالي لا شبهة للمجاز فيه أن علم الجرح والتعديل، وجهازه الاصطلاحي يقدم مثالا فريدا على إيجابية العقل المسلم، وقدراته الفائقة في الميدان العلمي الحضاري.

***

ثالثا
معاجم الغربيين في العربية
(نشأتها وأشهر مصنفاتها)

(مدخل)

من الحقائق المستقرة في تاريخ المعجم العربي أنه نشأ بسبب من خدمة الكتاب العزيز، وبسبب من العناية بحفظ دلالات ألفاظه الكريمة، وحماية لها من التغير، حتى صح في هذا الميدان أن نقرر أنه لولا القرآن ما كانت المعاجم العربية.

وتأمل هذا الارتباط العضوي بين ظهور المعاجم العربية وإرادة خدمة الكتاب العزيز جزء من حفظه الموعود به؛ أي أن المصحف الشريف كان لحفظ النص، ثم كان المعجم لحفظ معاني ألفاظ هذا النص الكريم.

والشواهد التاريخية متواترة تدعم ما نقوله ونقرره؛ إذ توجهت المحاولات القديمة الأولى في مجال المعجم إلى العناية بلفظ الذكر الحكيم وحده من غير مخالطة من لفظ آخر، على ما نرى في المحاولة المعجمية المبكرة جدًّا المعروفة باسم (سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس رضي الله عنهما)، وهو ما يؤكده الدكتور محمد أحمد الدالي فيقول: "وهي مسائل عن معاني ألفاظ من غريب القرآن سأل نافع بن الأزرق (ت ٦٥هـ) عنها ابن عباس (ت ٦٨هـ)، وطالبه أن يأتي بشواهد على ما يفسره من معاني الألفاظ من شعر العرب" [سؤلات نافع بن الأزرق عن عبد الله بن عباس، برواية الختلي والعلاف، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي، طبعة الجفان والجفاني، سنة ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م، ص ٧].

ويؤكد معنى القيمة التي تمثلها هذه المحاولة المعجمية الأولى فيقول: "وهذه المسائل عظيمة الخطر من الناحيتين: العلمية والتاريخية، وذلك أنها أول ما يعرف من آثار التفسير اللغوي للقرآن، وأول ما يعرف في باب الاحتجاج لمعاني ألفاظ القرآن بالشعر، وأن ما

فيها من تفسير ألفاظ من غريب القرآن ومن شواهد الشعر مروي عن ابن عباس إمام المفسرين وترجمان القرآن" [سؤلات نافع بن الأزرق، ص ٨].

وقد خلصت هذه المحاولة للعناية ببيان معاني عدد من ألفاظ الكتاب العزيز ، وقد اتسمت بعدد من السمات يمكن بيانها من خلال المثال التالي وهي المسألة العشرون [ص٥٨]: "قال فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ [سورة يوسف ٨٥/١٢].

قال: الحرض: البالي.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعت طرفة حيث يقول: [من الطويل]

أمن ذكر ليلى أن نأت غربة النوى كأنك حم للأطباء محرض

وهو مثال مسبوق بمسألة في بيان معنى (كظيم)، وهو مثال تلحقه مسألة في بيان معنى (سجر)، ففي هذا المثال اتضح أن هذه المسائل باعتبارها محاولة معجمية قديمة تذرعت بعدد من الخصائص هي:

١- عشوائية المنهج؛ بمعنى أن ترتيب الألفاظ لم يخضع لمنهج معين.

٢- العناية بذكر السياق من خلال الحرص على ذكر الآية المتضمنة للفظ المراد بيان معناه.

٣- العناية بذكر الشاهد المعجمي (وهو هنا الشعر القديم) باعتباره الدليل على صحة المعنى المذكور، وهو التفات مبكر ومهم جدًّا في هذا المجال.

٤- العناية بالوظيفة الأم للعمل المعجمي، وهي وظيفة شرح المعنى أو تعريفه، وبيانه.

٥- النوعية، بمعنى أن هذا المعجم المبكر احتفل بعدد معين من ألفاظ الكتاب العزيز، ولم يجمع كل ألفاظ الكتاب الكريم، وهو ما سوف تتكفل بالزيادة عليه ما يظهر في ما بعد من معاجم غريب القرآن؛ مما يدعم القول بنسبية الغريب من زمن إلى زمن ما.

٦- النقص في الوظائف المعجمية، بمعنى أن ثمة نقصا في عدد من الوظائف المعجمية ظهر في هذه المحاولة من مثل النقص المعلق بوظيفة معلومات الصرف (ما يتعلق بنوع الكلمة)، والنحو، ونحو ذلك.

(١) نشأة التأليف في معاجم الغربيين.

ثم استمرت العناية ببيان معاني ألفاظ الكتاب العزيز حتى ظهر اتجاه معجمي كامل عرف باسم (معاجم غريب القرآن)، ثم تبعه ظهور العناية ببيان معاني ألفاظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم؛ باعتبار السنة المطهرة هي الوحي المبين للوحي والمكمل له، والمفصل لما جاء فيه؛ وهو ما عرف باسم (معاجم غريب الحديث).

ثم ظهرت مجموعة من المعاجم جمعت بين دفتيها ألفاظ القرآن الكريم مع ألفاظ السنة الشريفة، ونحن نرى في ذلك أثرا من آثار علم **الأصول**؛ أي علم أصول الفقه، بمعنى أننا نرى أن نشأة معاجم الغريبين في العربية كانت بسبب من النظر إلى أن الكتاب العزيز، والسنة المشرفة هما الأصلان الأعليان للتشريع عند المسلمين، ومن ثم فلا تصح أي عملية استنباطية من غير عناية ببيان ألفاظ هذين المصدرين، ومن هنا جمعت ألفاظ الذكر الحكيم مضمومة إلى ألفاظ الحديث النبوي الشريف؛ خدمة جليلة للعمل الأصولي على سبيل التمهيد، وإن كان ظهور هذا النمط التصنيفي في تاريخ المعجمية كان أثر من آثار علم أصول الفقه الذي أصَّل لحقيقة كون القرآن الكريم والسنة الشريفة هما مصدرا التشريع الأساسيين المتفق عليهما، ولا شك أن السبيل إلى ذلك إنما يكون ببيان معنى الغامض من ألفاظ هذين المصدرين وهو المراد بالغريبين.

(٢) أشهر المصنفات في معاجم الغريبين.

في المدخل الذي صنعه حاجي خليفة في كشف الظنون [كشف الظنون، لحاجي خليفة، مصورة دار الفكر، بيروت سنة ١٤١٠ هـ= ١٩٩٠م، (١٢٠٩/٢)] للغريبين ذكر المصنفات التالية، وهي تمثل عصب ما وصل إلينا من تراث معاجم الغريبين:

أ- الغريبين؛ يعنى غريب القرآن والحديث، لأبي عبيد الهروي المتوفى سنة ٤٠١هـ.

ب- مختصر الغريبين، لأبي المكارم النحوي المتوفى سنة ٥٦١هـ.

ج- المشرع الروي في الزيادة على غريبي الهروي، لابن عسكر ٦٣٦هـ.

د- المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، للمديني المتوفى سنة ٥٨١هـ.

هـ- التنبيه، للسلامي المتوفى سنة ٥٥٠هـ

ومن فضل الله أن يسر سبيل نشر أهم مصنفات معاجم الغريبين، فاعتنى الدكتور محمود الطناحي- رحمه الله ورضي الله عنه- بالغريبين للهروي؛ فأخرج الجزء الأول منه سنة ١٣٩٠هـ= ١٩٧٠م، وهو المنتهي بحرف الجيم، ثم جاء الأستاذ/ أحمد فريد المزيدي فنشره نشرة كاملة في ستة أجزاء بالمكتبة العصرية، بيروت سنة ١٤١٩هـ= ١٩٩٩م.

كما نشر كتاب المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث،لأبي موسى المديني بعناية عبد الكريم العزباوي في جامعة أم القرى بمكة المكرمة حرسها الله في مجلدين كبيرين سنة ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م. وهو تتمة وتكملة للغريبين، استدرك عليه، وأورد ما لم يرد فيه، يقول [٤/١]: "غير أني وجدت كلمات كثيرة شذت عن كتابه (أي الغريبين للهروي) إذ لا يحاط بجميع ما تكلم به من غريب الكلم، فلم أزل أتتبع ما فاته، وأكتب ما غفل عنه".

كما نشر الدكتور وليد محمد السراقبي كتابه (التنبيه على الألفاظ التي وقع في نقلها وضبطها تصحيف وخطأ في تفسيرها ومعانيها وتحريفها في كتاب الغريبين) لابن ناصر السلامي المتوفى سنة ٥٥٠هـ، بالمجمع الثقافي بأبي ظبي، سنة ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٣م.

وبهذا يصح أن نقرر أن لدينا نسخة موسعة ومصححة من أهم معاجم الغريبين في تاريخ المعجم العربي.

(٣) منهجية التيسير.

ليس من غرضنا في هذه العجالة أن نحسم الجدل الدائر حول أولية الاهتداء إلى المنهج الألفبائي الدقيق في ترتيب المعجم العربي، وإن كنا نميل إلى القول بأن أبا عمرو الشيباني ٢٢٤هـ، كان السابق إلى وضع معجمه الجيم مرتبا مداخله خارجيا فقط على الترتيب الهجائي الألفبائي من دون ترتيب داخلي للكلمات في داخل الباب، ونميل إلى القول بأن أبا عبيد الهروي المتوفى ٤٠١هـ صاحبنا، هو من أكمل ضبط هذا المنهج بما

صنعه من ترتيب دقيق راعى فيه الثواني والثوالث مع الأوائل، وليس يصح إلى الآن غير ذلك.

المهم أن ترتيب معاجم الغريبين الكبرى جاء مراعيا التيسير على عموم المستعملين، وهو ما تجلى في إيراد الألفاظ مرتبة على الحرف الأول، بمعنى أن الكلمات المبدوءة بحرف الهمزة أو بحرف الباء.. إلخ، جمعت في باب مستقل، ثم عاد فرتب الكلمات المبدوءة بحرف واحد والمجموعة في باب واحد ترتيبا دقيقا يراعي مع هذا الحرف الأول ما يليه من الحروف الثواني والثوالث على وفاق الترتيب الألفبائي المشرقي (أ، ب، ت، ث، ج.. إلخ) بحيث تر ى في باب الهمزة مثلا الترتيب التالى: الهمزة مع الباء، ثم الهمزة مع التاء، ثم الهمزة مع الثاء، وهذا التيسير ملمح مهم من ملامح العلم عند المسلمين.

ويفتتح المعجم كل باب أو فصل ببيان معاني غريب القرآن الكريم أولا، ثم يثني ببيان غريب السنة ثانيا، وهو ما يدعم التأثير الأصولي في نشأة معاجم الغريبين من جانب آخر.

ومن الأمثلة الدالة على منهج التعامل مع الألفاظ قول الهروي في الغريبين [١/١٨٠]: "ما من رجل له إبل وبقر لا يؤدي حقها إلا بطح لها يوم القيامة بقاع قرقر كأكثر ما كانت وأبشره ؛ أي: أحسنه. وسميت الرياح مبشرات؛ لأنها تبشر بالمطر".

ويتعقب السلامي قول أبي عبيد وروايته فيقرر في التنبيه [١٢١]: "وقد وقع في هذه اللفظة تصحيف، وهو قوله: "وأبشره " وإنما هو "آشره" يعني: أنشطه، مأخوذ من الأشر وهو النشاط والمرح، لا من البشر الذي هو الحسن"، ثم يفيض في تخريج روايات الحديث بما يؤكد رأيه.

ثم يأتي المديني فيزيد مما استدركه على الغريبين في المادة نفسها ما يلي [١/١٦١]: "في حديث الحجاج في المطر "كيف كان المطر وتبشيره"؛ أي: مبدؤه، وأوله، ومن: تباشير الصبح، وهو مصدر بشر؛ لأن طلوع فاتحة الشيء كالبشارة به".

ومن هنا فإنه يصح– ولا يصح غيره– أن نقرر أن حضور القرآن الكريم والسنة الشريفة في المركز من حضارة العرب كان له أثره البالغ في تنمية البحث اللغوي عموما،

والبحث المعجمي خصوصا، وهو ما يدعونا إلى مداومة فحص هذه العلاقة الجوهرية والمحورية بين القرآن الكريم والسنة المطهرة والعلوم التي دارت في مداراتهما.

***